مكتبات هادفة

السلسلة القرآنية ١

القرآن الكريم
طبيعته ووظيفته

أ. د. الشاهد البوشيخي

القرآن مصدر كل خير

والآن ونحن أمام هذا الخير العظيم، هذا الخير الذي ما دخلنا إلى التاريخ إلا به، وما خرجنا من التاريخ إلا بالإعراض عنه و عدم الاهتداء به، ما صرنا إلى الحال التي صرنا فيها أسوأ من المغضوب عليهم إلا بالإعراض عن هذا الكتاب، إلا بهجران هذا الكتاب، إلا بالبعد عن هذا الكتاب، وقد بالغنا في البعد إلى حد أنا أخرجناه من ديارنا ومجالسنا، حتى اللغة التي بها نزل صار بيننا و بينها حواجز، صارت شاقة علينا أن نعرفها، ومن ثم صار شاقا علينا أن نعرف المراد من كتاب الله عز وجل، أبعدنا عنه، فما عدنا نلتقي به إجباريا كما ينبغي أن يكون في التعليم، لأن عدم تعلمه ينتج الضلال، ولا سبيل إلى معرفة الطريق بغير هذا الهدى، هدى الله﴿ قل إن الهدى هدى الله﴾ ولا سبيل إلى هدى إلا من الله وبالله.

الثمن: 5 دراهم

مطبعة آنفو-برانت
Imp. Info-Print
Tél.: 035.64.17.26 Fès
Fax.: 035.65.72.47
E-mail:infoprintfes@gmail.com
Site Web: http://infoprint.awardspace.com

مكتبات هادفة

القرآن الكريم
طبيعته ووظيفته

السلسلة القرآنية

1

أ. د. الشاهد البوشيخي

القرآن الكريم
طبيعته ووظيفته

محاضرة ألقاها: الدكتور الشاهد البوشيخي

رقم الإيداع القانوني: 2008 MO 1777

جميع حقوق الطبع محفوظة

طبع وتصميم: مطبعة آنفو - برانت، 12، شارع القادسية - الليلو - فاس.
الهاتف: 035.64.17.26 / 061.20.16.41 / الفاكس: 035.65.72.47
البريد الإلكتروني: infoprintfes@gmail.com
Site Web: http://infoprint.awardspace.com

بسم الله الرحمن الرحيم

(1) الحمد لله رب العالمين (2)
الرحمن الرحيم (3) ملك يوم الدين
(4) إياك نعبد وإياك نستعين (5)
اهدنا الصراط المستقيم (6) صراط
الذين أنعمت عليهم غير المغضوب
عليهم ولا الضالين (7)

سورة الفاتحة

قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله

من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من

الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط

مستقيم.

سورة المائدة : 15-16.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ».

رواه البخاري في كتاب العلم حديث رقم 77.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله

بين يدي السلسلة

هذه السلسلة –لقرآنيتها– هي السلسلة الذهبية، وهي واحدة من سلاسل متعددة من المحاضرات والكلمات، ألقيت في مناسبات مختلفة وأوقات متباعدة، يجمع بينها أنها أخرجها من الأشرطة إلى الورق كرام بررة، حسبوا حسن ظن منهم أن فيها فوائد تستحق النشر والتعميم، فحثوا على الإسراع بالجمع والطبع، وبادروا إلى الإخراج والتصفيف والإعداد للطبع.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك فيها وفيهم وفي كل المومنين، ويجعلها بمحض فضله كما ظنوا أو فوق ما ظنوا، ويجزيهم ويجزي كل ساع في الخير ودال عليه الجزاء الأوفى.

والحمد لله رب العالمين

مقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. اللهم افتح لنا أبواب الرحمة، وأنطقنا بالحكمة، واجعلنا من الراشدين فضلا منك ونعمة.

إخواني الكرام:

إنني ما جئت اليوم معلما، ولا جئت مفسرا، ولا جئت عارض بضاعة كثرت عندي، وإنما سعيت كما سعيتم إلى مجلس يتلى فيه كتاب الله عز وجل، ويجتمع فيه على مائدة القرآن، مجلس تبحث عنه الملائكة وتسعى إليه،

ملتمسا مثلكم حياة قلبي بالقرآن، وتنور بصيرتي بالقرآن، وهداية تخرجني من الظلمات إلى النور بالقرآن، وشفاء لجميع أدوائي الظاهرة والباطنة بالقرآن، ورحمة لي ولكم وللأمة جمعاء والعالمين أجمعين بالقرآن.

إحياء القرآن للإنسان

1 ـ القرآن غذاء الروح :

إخواني، إن الله سبحانه وتعالى جعل هذا الإنسان من عنصرين: خلقه من طين، حتى إذا سواه نفخ فيه من روحه. خلقه من طين، ثم من روح. الجانب الطيني في الإنسان له غذاء، والجانب الروحي فيه له غذاء آخر يخالف الغذاء الأول. الجانب الطيني مرده إلى هذه الأرض، منها خلقنا، ومنها نغذي هذا القسم فينا من جميع ما في هذه الأرض. فمن نباتها ومن حيوانها، ومما فيها وما عليها وما حولها من هواء، وغير ذلك من مواد، يغذي هذا القسم الطيني فينا، ولكن الذي يسير هذا القسم الطيني فينا هو القسم الآخر

الروحي الذي هو من الله عز وجل، ومن أمر الله سبحانه ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾[1] هو من أمر الله عز وجل، هذا القسم بم يتغذى؟ وهو القسم الذي يحكم ويسير القسم الآخر، فعلى حسب ظلمته ونورانيته يكون هذا التوجيه لهذا الجسد، ذلك القسم مم يتغذى ؟ إنما غذاؤه من حيث جاء، أي من الله عز وجل؛ فالله عز وجل رحمة بنا حين خلقنا واستخلف أبانا آدم في هذه الأرض، ثم استخلف ذريته من بعده –وجعلهم خلائف في الأرض – رحمة بنا أنزل هدى من عنده، أنزل غذاء من عنده لهذه الأرواح. هذا الغذاء إذا تم تناوله وفق جرعات معينة، وفق نظام معين، أثمر ثمرته، وغذى هذه الأرواح فعلا، واستطاعت أن تقوم بوظيفة الخلافة في هذه

[1]– سورة الإسراء : 85.

الأرض، وتضطلع بكل ما استخلفت فيه بقوة وأمانة. أما إذا لم تتغذ بهذا الغذاء الرباني فإنها تموت، تجوع ثم تجوع ثم تموت نهائيا. فإذا ماتت أصبح الطين من الناحية العملية هو المهيمن، وأصبحت الأفكار التي يجب أن تكون في مستوى نوراني عال أصبحت أيضا أرضية، أصبحت طينية كذلك، وأصبح الإنسان أبعد ما يكون عن أن يقوم بالخلافة في الأرض.

2 ـ القرآن هو الكتاب في صورته الكاملة :

هذا الغذاء النازل من عند الله عز وجل، عبر مراحل ومراحل، منذ آدم عليه السلام، إلى محمد صلى الله عليه وسلم، هذا الغذاء الذي تتم به التغذية فعلا هو الوحي، الوحي الذي جاء من عند الله عز وجل، مقسطا في رسالات، يعتبر مجموعها هو الدين الذي نزل على مراحل،

حسب درجة نمو هذا الإنسان الفرد، والإنسان المجتمع، والإنسان النوع. فعلى حسب المراحل التي مر بها هذا الإنسان، كان الهدى النازل إليه ملائما للفترة التاريخية التي يمر بها، حتى إذا وصل الإنسان في نموه واستعداده الفردي والجماعي إلى درجة صار فيها مؤهلا كاملا، نزل الكتاب، نزل كتاب الله عز وجل بكامله، لا بعض منه، نزل مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه. السابقون إنما أوتوا نصيبا من الكتاب، أما الآن فقد نزل الكتاب بكامله للإنسانية في الصورة النموذجية، بعد أن بلغ الإنسان رشده، وبلغ أشده، وصار صالحا لأن يحمل الأمانة، متفاعلا معها مباشرة، يواجه وقائع الظروف والأحداث والزمان، يواجهها متفاعلا مع ذلك الهدى مستجيبا لما يجب عن طريق الاجتهاد.

3ـ القـــرآن للقلـــوب كالغيـــث للأرض:

هذا الهدى والغذاء الذي هو الكتاب وهو القرآن، يصف لنا رسول الله ﷺ تنزله مشبها له بغيث قائلا: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ...**» ثم يعطينا ثلاثة أصناف من الأرضين : «**طائفة طيبة ؛ قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير**»، وطائفة إنما هي «**أجادب: أمسكت الماء**» ولم تنتفع به، لكن «**نفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا**»، وطائفة ثالثة «**إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ**».

ثم يقول: «**فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**» رواه البخاري ومسلم.

فطبيعة هذا الهدى إذن كطبيعة الغيث. هو كالماء فعلا بالنسبة إلى القلوب: قلوب أبناء آدم، يترل فيها الماء الرباني فتحيى، يفعل فيها ــ إذا قبلته ــ فعل الماء في الأرض الخصبة. والقلوب الطيبة فعلا تقبل هذا الهدى فتزكو، فينتج عن ذلك أثر في الفكر، وأثر في السلوك، وأثر في الحياة الخاصة والعامة التي تحيط بالشخص، وتحيط بعد بالجماعة التي تغذت بهذا الماء، فتحدث الحياة، وتحدث مظاهر الحياة وخصائصها كلها.

الماء يحدث الحياة في الأرض الطيبة، ويرى أثر تلك الحياة بارزا فيما أنتجت تلك الأرض: تهتز، تربو، تخرج من كل زوج بهيج ... ومثل ذلك الأثر بالضبط أيضا يحدثه الهدى النازل في القلوب، إذا قبلته القلوب، إذا انفتحت أبواب القلوب لهذا الهدى، وتغذت بهذا الماء الرباني. فإنه يحدث فيها ذلك الأثر الذي هو الحياة. ﴿أو من كان ميتا

فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾[2]!

2- سورة الأنعام، الآية : 123.

تنوير القرآن للإنسان

القرآن نور:

وأول أثر لهذا الغذاء أنه يحيي هذا الكائن الذي يتغذى به، فيصبح سليم الحواس، ويستقبل ما حوله من مؤثرات استقبالا صحيحا، ويستجيب لها استجابة صحيحة. فيحدث له بسبب ذلك تنور ﴿وجعلنا له نورا﴾. ﴿قد جاءكم من الله نور﴾ وفي هذا تحديد لطبيعة هذا القرآن، وتحديد لطبيعة هذا الكتاب النازل من عند الله عز وجل، طبيعته أنه نور، ووظيفة النور العادية أن يكشف كل شيء على حقيقته، فسليم الحواس الحي يستطيع الإبصار إذن للمبصرات بوضوح، ويستطيع السمع للمسموعات

بوضوح، ويستطيع الشم للمشمومات بوضوح... وهكذا، فكل ما هو قابل للإدراك في الصورة الطبيعية العادية يستطيع سليم الحواس الحي بالماء النازل عليه من الله عز وجل المحيي لقلبه أن يدركه، يستطيع بوجود النور أن يرى الأشياء كما هي، بدءا من الحقيقة العظمى التي منها كل شيء، وإليها يرجع كل شيء، وبها قائم كل شيء، وإليها مصير كل شيء: الله عز وجل.

فالله عز وجل أول ما يُدرَك، وأول ما يدْرِك هذا الكائن الذي حيي، الكائن الذي خرج من الموت إلى الحياة بسبب هذا النفخ الرباني فيه، أول ما يدرك هذه الحقيقة الكبرى، يدرك الله عز وجل، يعرف الله عز وجل، وتلك بداية الخير كله، من عرف الله فقد عرف كل شيء، ومن فاتته معرفة الله فقد فاته كل شيء.

فالكائن الحي السليم الحواس بسبب هذا القوت النازل، بسبب هذا الماء النازل من عند الله عز وجل، يجعل الله له نورا، وبواسطة ذلك النور يرى الأشياء كما هي، رؤية الأشياء كما هي ينتج عنها بصورة طبيعية الرتبة الثالثة بعد الحياة والتنور، وهي رتبة الاهتداء.

هـداية القـرآن للإنسـان

1 ـ النور سبب الاهتـداء لمن استناره :

فالعبد فعلا يعرف طريقه، يبصر طريقه، يهتدي بهدى الله عز وجل؛ ذلك بأن سليم الحواس إذا رأى حفرة أمامه هل يضع رجله فيها، وهي حفرة كبيرة عميقة، إذا وضع رجله فيها هلك؟! هل سليم الحواس يستطيع ذلك فعلا؟ ويجرؤ هذه الجرأة؟ ويقدم على هذه المغامرة؟ فيضع رجله وهو يرى هذه الحفرة بوضوح في ضوء النور، هل يضع رجله فيها ليهلك؟ كلا ثم كلا. لا يمكن أن يحدث هذا إلا إذا لم يكن هناك نور نهائيا، أو كان هناك ما يمنع من التنور

بهذا النور، كما إذا كان هناك جنون أو غيبوبة، أو أن الحواس غير سليمة، فيها مرض.

2 ـ أنـواع القلـوب في علاقتها بالنـور :

والقلوب أنواع :

أما قلب المومن الصادق، ـــ نسأل الله عز وجل أن يجعلنا وإياكم من المومنين الصادقين ـــ فمثل السراج يزهر بالإيمان.

وأما قلب الكافر فهو كالكوز مُجَخِّياً كما عبر رسول الله ﷺ، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، لا يعرف منكرا من معروف، ولا معروفا من منكر، يمشي منكسا على رأسه. ﴿أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن

يمشي سويا على صراط مستقيم﴾[3] فالكافر لا يستطيع الرؤية لأن على بصره غشاوة. ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم آنذرتهم أم لم تنذرهم لا يومنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة . . .﴾[4] الحواس الأساسية هي هذه. ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾[5].

فالسمع والأبصار توصل إلى القلب الذي يعطي ما ينبغي، يحلل معطيات الحواس ليكون الموقف السديد السليم، فإذا ختم الله على السمع والبصر، أي وضع طابعا يسد به هذه الأسماع وهذه الأبصار، فهذه القلوب كيف

---

[3]– سورة الملك : 22.
[4]– سورة البقرة : 6-7.
[5]– سورة الملك : 23.

يمكن أن يصل إليها النور؟! كيف يمكن بعد ذلك أن ترى وتبصر الطريق؟ ألا لا هداية لكافر، ولا سبيل إلى أن يهتدي، مادام مصرا على كفره، لأنه مُغْلِقٌ للوسائل التي ينفذ منها النور الرباني إليه، هو مغلق لها سَادٌّ لمنافذها.

والقلب الثالث هو القلب المريض الذي تعتريه الصحة والفساد، فيه جانب صحيح، وجانب فاسد، فهو بحسب ما غلب عليه.

فالقلب المؤمن يبصر الطريق بلا إشكال، والقلب الكافر لن يبصر الطريق بلا إشكال، والقلب المريض مضطرب بين ذلك، يبصر بعضا، ولا يبصر بعضا.

فهذه الرتبة الثالثة هي رتبة الاهتداء، ومردها إلى ذلك الغذاء الأصل، الذي هو كتاب الله عز وجل، القرآن الكريم، هذه الرتبة تنتج نتاجا طبيعيا عن الرتبة الثانية التي هي رتبة النور، فيبصر الإنسان طريقه، ويميز الطيب من

الخبيث، ويميز الحلال من الحرام، ويميز الصالح من الفاسد، ويميز المفسد من المصلح، ويميز كل شيء، ويتضح له الطريق طريق الحق، والصراط المستقيم.

3ـ القرآن هدى لمن اتبعه :

ومن هاهنا كانت هذه الصفة للقرآن بعد صفة النور، أنه هدى، ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾[6]. ﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾[7] ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس﴾[8] فهو أيضا من حيث طبيعته عبارة عن هدى: هو هداية، إرشاد، دلالة توضح الطريق كل الوضوح في ضوء النور الموجود.

6- سورة فصلت : 44.
7- سورة البقرة : 1.
8- سورة البقرة : 185.

أما إذا لم يكن نور فلا سبيل، ولذلك قالت الآية الكريمة: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾[9] أما إذا لم يتبع فلا سبيل إلى هدايته بهذا النور، لأنه لا يمكن أن يرى، فإذا أغمضنا أعيننا، فإننا لا نبصر شيئا ولو مع وجود النور، لكون هذا النور نفسه لا سبيل إليه إلا بالاتباع، فلا اهتداء إلا بالاتباع ﴿يهدي به الله من اتبع﴾ لا سواه، فردا كان أو جماعة أو مجتمعا أو نوعا، و﴿ من اتبع ﴾ رضوان الله، لا سخط الله.

ففي القرآن ــ والقرآن مثاني ــ النظائر، فيه الخير والشر، فيه الترغيب والترهيب، فيه وصف الكفر وفيه

[9]- سورة المائدة : 6.

وصف الإيمان، كله نظائر ومثاني. ﴿فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله ﴾[10] وإنما يهدي به الله من اتبع رضوانه، لا الذي اتبع سخطه. وترغيبا في هذا الاهتداء إلى أقصى حد، كان التعبير بالرضوان لا بالرضى فقط ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾، لأن الذي تحرى اتباع الأرضى لله عز وجل لاشك أنه الأهدى، وأنه الأرشد، وأنه الأكثر حظا وانتفاعا بهذا الهدى الذي جاء من عند الله عز وجل.

[10]- سورة الزمر : 17.

4ـ الهداية هي أول مطلوب :

ونتيجة البصر بالطريق نصل إلى الهدى، وأنتم تعلمون أن هذا الكتاب فرض الله علينا فيه فرضا كل يوم : دعاءً كل يوم، ولهذا الدعاء محور واحد يتكرر إجباريا بالنسبة للمؤمن سبع عشرة مرة، هو: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ فالذي لم يهتد إلى الصراط المستقيم، ضل في الدنيا وهلك في الآخرة، ضل في الدنيا وشقي، وضل في الآخرة وشقي كذلك. الذي لم يهتد خسر الخسران المبين. فكون الإنسان جاع، أو عريَ، أو مرضَ، إلى غير ذلك من العوارض التي تعرض للإنسان، كل ذلك هين بالنسبة إلى الأمر الجلل: أن لا يهتدي، بخلاف ما إذا اهتدى، فمع الجوع والعريُ، ومع أي احتمال آخر يمكن أن يكون، فقد فاز فوزا عظيما. على أنه إذا اهتدى بالنور الرباني، فبإذن الله عز وجل لن يجوع ولن يعرَى إلا ابتلاء وفتنة إلى حين. نعم هناك

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾[11] نعم قد يقع البلاء بشيء من ذلك، ولكنه عارض وعاقبته حميدة، أما الذي ضل ولم يعرف الصراط، ولم يعرف الطريق، ولم يهتـــد إلى المنهج ـــ وما جاء الدين إلا ليوضح هذا المنهج ـــ الذي ضل ولم يعرف الصراط، مهما تمتعَ تمتع الأنعام في الدنيا، فإنه قد خسر خسرانا مبينا في حياته الأخرى التي هي الحياة ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾[12].

11– سورة البقرة : 155.

12– سورة العنكبوت : 64.

إخراج القرآن للإنسان من الظلمات إلى النور

1 ـ بالقرآن يتم إنقاذ الإنسان :

بعد الاهتداء نصل إلى رتبة رابعة يرشد إليها القرآن أيضا في تحديد وظيفته، وهي نتيجة طبيعيـــة أيضا في ترتبها على ما قبلها، تلكم هي أنه يحدث ــ بسبب هذا الاهتداء إلى الصراط المستقيم ــ الخروج من الظلمات إلى النور.

﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه﴾[13] سبل السلام في الدنيا والآخرة، فالجنة كما تعلمون هي دار السلام، والله يدعو إلى دار السلام، وسبل السلام كثيرة في كل مناحي الحياة،

---

[13]– سورة المائدة : 6.

كثيرة جدا، يهتدي إليها من اتبع رضوان الله، فردا، أو جماعة، أو مجتمعا، أو نوعا، يهتدي إليه في كل مجالات الحياة إذا اتبع رضوان الله، وبسبب ذلك يحدث له الخروج الكامل من الظلمات بجميع أشكالها وألوانها: ظلمات القلب، ظلمات الفكر، ظلمات القول، ظلمات العمل، الظلمات التي تكون في الحالة الفردية، والظلمات التي تكون في الحالة الاجتماعية على أي مستوى كانت، ومن أي لون كانت.

يحدث للعبد بسبب هذا الاهتداء الخروج منها كلها بفضل الله عز وجل.

2 ـ الظلمات ألوان والنور واحد :

﴿تخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ الظلمات جمع، فهي أشكال وألوان، وتدل على أن صور الضلال، وصور

الفساد، وصور الفسق، وصور الكفر، وصور الإلحاد، وصور التيه... أشكال وألوان لا عد لها ولا حصر، ولكن طريق الحق واحد، ومصدره واحد، ﴿الله نور السموات والأرض﴾[14]، والذي يخرج من الظلمات يخرج إلى الله عز وجل، ﴿ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين﴾[15] يخرج إلى النور، وإلى أثر النور في الواقع، الله عز وجل هو نور السموات والأرض، وهذا الكتاب هو نور من الله عز وجل، ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾[16].

14– سورة النور : 35.
15– سورة الذاريات : 50.
16– سورة التوبة : 32.

هذا الذي جاء منه سبحانه وتعالى كان نورا فعلا، نزل على رسول الله ﷺ، فأضاء المنطقة التي ظهر بها، واستمرت إضاءته لما حولها في كل النقط التي حل بها، ورسول الله ﷺ بسبب اتباعه للقرآن صار هو نفسه كذلك مصدرا نورانيا، كما قال الله عز وجل: ﴿يا أيها النبيء إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾[17].

نعم (سراجا منيرا)، فهذه الإنارة الموجودة في رسول الله ﷺ هي نازلة عليه من الله عز وجل، هي هذا القرآن الذي هو محض نور هكذا: ﴿قد جاءكم من الله نور﴾[18]،

[17]- سورة الأحزاب : 46.
[18]- سورة المائدة : 15.

﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾[19]، ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾[20]. هذا النور نازل من عند الله عز وجل، وإليه يتم الخروج من جميع الظلمات، وبه يتم الخروج أيضا من جميع الظلمات.

﴿تخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه﴾[21] بقدرته، بحوله، بطوْلِه، بمشيئته، فلا أحد ينتقل من شر إلى خير إلا بفضل الله ورحمته سبحانه وتعالى.

ومن هنا نصل ــ عندما يتم هذا الخروج تلقائيا ــ إلى صفة أخرى يرشد إليها القرآن أنها من طبيعته ومن وظيفته

[19]- سورة التغابن : 8.
[20]- سورة الأعراف : 197.
[21]- سورة المائدة : 16.

هي صفة الشفاء وصفة الرحمة. ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة﴾[22].

[22]- سورة الإسراء : 82.

شفاء القرآن للإنسان

القرآن وظما الإنسان:

الشفاء في الحقيقة مرحلة سابقة للرحمة، ترشد إلى هذا العطش، وهذا الظمأ الذي للكائن البشري إلى الحقيقة الربانية.

في كل منا تعطشٌ إلى معرفة الأشياء كما هي، ولا يتم الشفاء من ذلك على وجهه الصحيح إلا بالقرآن، لكن القرآن لا يفضي ببعض سره إلا مع التدبر، ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾[23]، وقد استنكر الله علينا هذا مرتين

[23]- سورة محمد : 28.

في كتابه عز وجل الذي هو ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾[24].

إذا لم يقع التدبر فلن يقع قطعا الوصول إلى المقصود، ولن يُظفر بالمراد من كتاب الله عز وجل.

فهذا القلق النفسي، وهذا الظمأ، وهذا العطش للحقائق الكبرى والعليا سواء تعلقت بالمنشأ أو بالمآل، أو تعلقت بالغيب المواجه في كل لحظة، الغيب العاجل، أو الغيب الآجل، أو تعلقت بما في الأرض، أو بما في السماء، كل ذلك الشفاء منه موجود في كتاب الله عز وجل.

[24]- سورة ص : 29.

رحمة القرآن للإنسان

1 ـ الرحمة نتيجة ما تقدم:

إن القرآن الكريم يصير بسبب كل هذا رحمة: بسبب إحيائه للكائن البشري بعد موات، وبسبب تنويره له بعد ظلمة، وبسبب هدايته له بعد ضلال، وبسبب إخراجه له من الظلمات إلى النور، وبسبب شفائه له من كل داء، بسبب ذلك يصل العبد إلى المرحلة التي يدخل بها في الرحمة، وهي الدرجة العليا في الدنيا والآخرة.

انظر إلى حديث رسول الله ﷺ عن مجلس تدارس القرآن «**ما اجتمع قوم**»[25] على أي شكل كان هؤلاء القوم، «**في بيت من بيوت الله**»، والأرض كلها بيت الله. حقا، إن بيوت الله تلك التي أذن فيها أن ترفع، ولكن الأرض أيضا جعلت لنا مسجدا وطهورا، وهذا من خصوصيات رسول الله ﷺ «**يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**».

التلاوة لكتاب الله عز وجل في حد ذاتها هي بدء نزول الغيث الرباني، غيث الهدى والعلم والرحمة، ورسول الله ﷺ أول ما كان يفعل بالإنسان الذي يأتي إليه مستهديا هو أنه يقرأ عليه القرآن، يتلو عليه القرآن، فللقرآن بمجرد

25- رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، حديث 4867.

تلاوته تأثير خاص، وله فضل كبير على العبد التالي نفسه، «**من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول : ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»[26].

والمتلو عليه القرآن إذا قدر له أن يستمع وينصت فإن الرحمة تتنزل في قلبه بمجرد ذلك، ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾[27]، إن هذه الرحمة تنزل عليه في قلبه سكينة ونورا، وأمنا وأمانا، وعلما وفهما، تتنزل عليه بمجرد التلاوة أحيانا إذا ألقى العبد السمع وهو شهيد، أي شديد الحضور، لا منصرفا عما يتلى، لا غائبا عما يتلى، بل حاضر شديد الحضور، كما

26- سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن، حديث 2835 (انفرد به).

27- سورة الأعراف : 204.

جاء في كتاب الله عز وجل: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[28]، أي حاضر جدا.

2 ـ كيف نُرحم ونَرحم بالقرآن :

كان رسول الله ﷺ يبتدئ بهذه التلاوة في تفهيم المراد من هذا القرآن، لأنه قبل أن نعرف المراد من هذا القرآن لا يمكن أن نطبقه، هذه رسالة جاءت من عند رب العزة، قبل أن نعرف محتواها هل نستطيع الإجابة عنها؟ أو نستطيع الاستجابة لها؟ لا يمكن، ولا سبيل إلى ذلك.

ينبغي أولا التلقي بقلب حاضر، وبعد ذلك يأتي تعلم المراد من ذلك الملقى، تعلم المراد، ثم تعلم كيفية العمل

[28]– سورة ق : 37.

بذلك المراد، وهو تعلم الحكمة، ثم تأتي الممارسة، وكانت تراقب من رسول الله ﷺ، تزكية لصاحبها.

إذا حدث ذلك في مجلس من المجالس، اجتماع فتلاوة فتدارس، ما الذي يحدث من النتائج؟ «**نزلت عليهم السكينة**» والسكينة إذا نزلت في القلب ازداد العبد بها إيمانا ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾[29]، ثم ﴿غشيتهم الرحمة﴾ أي صارت بمثابة غشاء يغطي أهل المجلس، وهذا الذي أردت من هذا الحديث، أنا نُدْخَلُ بسبب القرآن في الرحمة، والرحمة تبعد الاختلاف وتجلب الائتلاف، ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾[30] فعند مجيء الرحمة تأتلف

[29]– سورة الفتح : 4.

[30]– سورة هود : 119.

القلوب، تنصهر وتصير كالشيء الواحد، وهي نتيجة لكل تلك المراحل السابقة.

فإذا دخلنا في الرحمة في هذه الدنيا، وأدخلنا الله في رحمته في الآخرة، فتلك هي المنزلة العلية، وذلك هو الفوز الكبير، وذلك هو الفضل العظيم.

القرآن مصدر كل خير

هذا الخير كله ــ للفرد أو للجماعة أو للمجتمع أو للبشرية إذا منَّ الله في وقت من الأوقات بعموم الخير فيه، وليس ذلك ببعيد ــ هذا الخير إنما مصدره شيء واحد هو كتاب الله عز وجل، وهذا بيت القصيد.

كتاب الله عز وجل رأس الخير كله في هذه الدنيا منذ استخلف آدم، لأن ما نزل قبل القرآن هو من الكتاب، ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب﴾[31] فإذا قلنا، إن جميع ما في الأرض من خير سببه هذا الكتاب فما أبعدنا، لأن ما نزل قبلُ هو الكتاب، وعند الله عز وجل أم الكتاب، يمحو ما يشاء من ذلك ويثبت، حسب المراحل

---

[31]– سورة آل عمران : 23.

التاريخية، وأخيرا نزل الكتاب، فما من خير عرفه الكون على يد أبناء آدم إلا وجاء على يد ما نزل من الكتاب، ذلك الذي أشير إليه يوم أهبط آدم فقيل له:

﴿قلنا اهبطوا منها جميعا فإما ياتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[32]، أو قيل له: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾[33] يحشر أعمى كما كان هنا أعمى، قال أحد المؤلفين القدماء: «**إن الكافر يحشر أعمى لأنه هاهنا كان أعمى**»، ومن تلقى القرآن بعَمىً بعث يوم

[32]- سورة البقرة : 38.
[33]- سورة طه : 126.

القيامة كذلك. ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾ نسيانه لآيات الله في الدنيا هو عمى ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يومنون في آذانهم وقر﴾ - أي ثِقلٌ في السمع- ﴿وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾[34] فلا يصل إليهم خبر، فلا يتأثرون ولا تصل إليهم المعلومات، فلا تظهر فيهم نتائج المعلومات.

أقول: هذا النور، هذا الخير هو مصدر كل خير في هذه الأرض منذ آدم عليه السلام، نزل منه ما نزل، وظل

[34]- سورة فصلت : 44.

يتنزل منه ما يتنزل، ويجدد تنزيله إلى أن نزل بكامله في الصورة الكاملة التي هو عليها اليوم، وهي القرآن.

نحن والقرآن

والآن ونحن أمام هذا الخير العظيم، هذا الخير الذي ما دخلنا إلى التاريخ إلا به، وما خرجنا من التاريخ إلا بالإعراض عنه وعدم الاهتداء به، ما صرنا إلى الحال التي صرنا فيها أسوأ من المغضوب عليهم إلا بالإعراض عن هذا الكتاب، إلا بهجران هذا الكتاب، إلا بالبعد عن هذا الكتاب، وقد بالغنا في البعد إلى حد أنا أخرجناه من ديارنا ومجالسنا، حتى اللغة التي بها نزل صار بيننا وبينها حواجز، صارت شاقة علينا أن نعرفها، ومن ثم صار شاقا علينا أن نعرف المراد من كتاب الله عز وجل، أبعدنا عنه، فما عدنا نلتقي به إجباريا كما ينبغي أن يكون في التعليم، لأن عدم

تعلمه ينتج الضلال، ولا سبيل إلى معرفة الطريق بغير هذا الهدى، هدى الله: ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ ولا سبيل إلى هدى إلا من الله وبالله.

هذا الهدى جماعه القرآن، به دخلنا أولا في التاريخ، وبه أخرجنا من الظلمات إلى النور، وبالابتعاد عنه تقلص ظلنا من جميع الأمصار التي كنا فيها سادة قادة، كالأندلس، وصقلية، وشبه جزيرة البلقان، وجنوب روسيا بكاملها، والشرق الإسلامي الأقصى، ومناطق ومناطق ...

وبالابتعاد عنه أيضا خرجنا نحن في ديارنا منا، خرجنا نحن من ذاتنا التاريخية، خرجنا نحن من كينونتنا الخاصة، وهويتنا الخاصة، وصرنا خلقا غريبا جدا، ما عدنا الخلق الذي تركه رسول الله ﷺ، الخلق الذي طلب منه أن يشهد على الناس، لأننا لا نستطيع الشهادة حتى على أنفسنا، فكيف نكون شهداء على النـــاس؟! والمطلوب أن نكون

شهداء على الناس، وما أخرجنا من الظلمـــات إلى النـــور إلا للناس، ﴿كنتم خير أمة أخرجت﴾ لا لأنفسكـــم، بل ﴿للناس﴾.

المؤمن في موقع الإرسال لا في موقع الاستقبال، المؤمن في موقع إرسال النور، في موقع الإشعاع، في موقع إيصال الخير وتبليغه إلى الناس، وليس في موقع التبعية، في موقع الذلة والمسكنة، في موقع استقبال الشر والويل والثبور، نسأل الله السلامة والعافية.

كيف نعود إلى القرآن

هذا القرآن أقول: أبْعدْنَا عنه بخطة كافر دخل ديارنا، وأبْعَدَ كتاب الله من المدارس، وأبعد السنة من المدارس، واجتهد في إبعاد العربية أيضا، ومازالت مبعدة إلى حد بعيد، وإنه يجب الآن إذا أردنا أن نعود من جديد إلى التاريخ، وأن ندخله من جديد، يجب أن نعود إلى هذا النور، يجب أن نشرب من هذا الماء الرباني، لابد من أن نتضلع منه، لابد من أن نرتوي حتى يخرج من مسام جلدنا، لابد من أن نستدرج القرآن بين جنوبنا، نعود إليه أفرادًا، ونحن نملك هذا الاختيار، ولا تستطيع أي قوة كيفما كانت أن تفصل بين الإنسان وبين القرآن وبين الإيمان، يجب أن

نجتهد فرديا في أن نتمسك بالقرآن، أو كما عبر القرآن، أن نمسِّك بالقرآن، ﴿والذين يُمَسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾[35] أي يُمْسِكونَهُ بقوة، ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾[36]، أما إذا أخذته بضعف تَفَلَّتَ منك، لأنه يتفلت كما تتفلت الإبل من عقلها.

أقول نحن الآن فعلا على موعد مع التاريخ، وإن الخير قادم يراه من يبصر، يراه رأي العين، وإن الخميرة خميرة القرآن عادت من جديد للنشاط في الكرة الأرضية منذ زمان، فمنذ نحو القرنين تقريبا، منذ الصفعة الأوربية العنيفة للعالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، منذ الضربات

[35]- سورة الأعراف : 169.
[36]- سورة مريم : 11.

والنكسات والويلات المتتالية في العالم الإسلامي التي ما منها واحدة إلا وقامت أو تقوم بحظ في الإيقاظ ولله الحمد، فرب نقمة في طيها نعمة، ولقد خُدِمَ المسلمون خدمة جُلى بمجيء الاستعمار، وهذا أمر غريب، ولكنه الحقيقة أيضا من زاوية معينة، هي زاوية الإيقاظ، وخدم المسلمون خدمة جلى بغرس الخنجر الصهيوني في قلب العالم العربي والعالم الإسلامي، لقد كان ذلك سببا في إيقاظهم من سباتهم العميق، كان ذلك سببا في أن يهبوا لرد الصفعات واللكمـــات، كان ذلك سببا في أن يستفيقوا، ولا تزال الضربات تتوالى حتى نستيقظ فرديا وجماعيا، لأن اليقظة الفردية لا تكفي، ولا قيمة لها إلا بمقدار ما تَحَوَّل نفسها إلى يقظة جماعية.

أقول: إذا أردنا أن نعود من جديد، وتعود هذه الأمة الإسلامية التي هي خير أمة أخرجت للناس، لابد أن نعود

إلى هذا القرآن أفرادا، نعود إلى الإقبال الشديد على هذا القرآن، وإلى استهلاك هذا القرآن قبل استهلاك الخبز، لأن الجوع الحقيقي هو جوع الأرواح، إذا ذهبنا إلى الآخرة وبطوننا جائعة، ولكن قلوبنا ملأى بلا إله إلا الله على حقيقتها، خالصة لوجهه الكريم، فإننا نذهب شباعا بطانا، لا خماصا، والعكس بالعكس، إذا ذهبنا منتفخي البطون، ولكن قلوبنا ليس بها لا إله إلا الله، على الوجه المرضي عند الله، فإننا نذهب خماصا حقا، ونذهب جياعا حقا.

إن التملؤ من هذا الكتاب والتضلع منه والارتواء، ينبغي أن يكون ديدن الفرد منا، وأن يجتهد كذلك في ذريته وأبنائه ما وسعه الجهد، يجتهد على الصورة الفردية، ويجتهد على الصورة الجماعية، وذلك بالتعاون مع سواه على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، ودعوة القرآن إلى التعاون على البر والتقـــوى تعني أن جانبا من

البـــر والتقوى لا يمكن أن يتحقق إلا بالتعاون، ولذلك كان الأمر الرباني: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[37].

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من عباده الذين يمسِّكون بهذا الكتاب وبما فيه، وأن يحيي أمة الإسلام بالقرآن، وينور قلوبها بالقرآن، ويهديها سبل السلام بالقرآن، ويخرجها من الظلمات إلى النور بالقرآن، ويشفيها من جميع الأدواء بالقرآن، ويرحمها رحمة شاملة باسمه الرحمن الرحيم بالقرآن.

اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت.

37- سورة المائدة : 2.

اللهم انفعنا بما علمتنا، وعلمنا ما ينفعنا وزدنا علما.

اللهم أحينا على ما حيي عليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأمتنا على ما مات عليه. اللهم إنا نسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحينا إذا كانت الحياة خيرا لنا، وتوفنا إذا كانت الوفاة خيرا لنا، ونسألك خشيتك في الغيب والشهادة، ونسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، ونسألك القصد في الفقر والغنى، ونسألك نعيما لا ينفذ، ونسألك قرة عين لا تنقطع، ونسألك الرضى بعد القضاء، ونسألك برد العيش بعد الموت، ونسألك لذة النظر إلى وجهك، ونسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة.

اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فهرس المحتويات

تقديم..... 9

إحياء القرآن للإنسان..... 11

1-القرآن غذاء الروح..... 11

2-القرآن هو الكتاب في صورته الكاملة..... 13

3-القرآن للقلوب كالغيث للأرض..... 15

تنوير القرآن للإنسان..... 19

القرآن نور..... 19

هداية القرآن للإنسان..... 23

1-النور سبب الاهتداء لمن استنار به..... 23

2-أنواع القلوب في علاقتها بالنور..... 24

3-القرآن هدى لمن اتبعه..... 27

4-الهداية هي أول مطلوب..... 30

إخراج القرآن للإنسان من الظلمات إلى النور.... 33

1-بالقرآن يتم إنقاذ الإنسان..... 33

2-الظلمات ألوان والنور واحد..... 34
شفاء القرآن للإنسان..... 39
القرآن وظمأ الإنسان..... 39
رحمة القرآن للإنسان..... 41
1-الرحمة نتيجة ما تقدم..... 41
2-كيف نُرحم ونَرحم بالقرآن 44
القرآن مصدر كل خير..... 47
نحن والقرآن..... 51
كيف نعود للقرآن..... 55

المحاضرة القادمة :

القرآن الكريم

روح الأمة الإسلامية